

الحزبية والحزبوية

الكاتب



عبدالحسين شعبان

عبد الحسين شعبان

توقف «جون بول سارتر» عند ظاهرة «افتراق السياسة عن الفكر»، حين عبّر عن ذلك بما معناه، هل يجب أن أقول الحقيقة فأخون البروليتاريا، أم يجب أن أخون الحقيقة بحجة الدفاع عن البروليتاريا؟

وكانت جامعة أكسفورد نظّمت ندوة في عام 2003 في إطار «مشروع دراسات الديمقراطية» حول «الديمقراطية في الأحزاب الثورية»، وفيها قدّمتُ بحثاً بعنوان «حين تزدري السياسةُ الفكرَ»، خلاصاته كيف يتم تبرير التجاوز على المبادئ والأفكار بزعم الضرورات السياسية والحزبوية، وإذا كان هناك من حاجة ماسّة ومستمرة لتكييف الفكر كي ينسجم مع الواقع، وهو ما نُطلق عليه البراكسيس، فإن ذلك لا يعني تعارضهما، أو تعاكسهما، بل توافقهما وتقاربهما

لقد فقدت الأغلبية الساحقة من الأحزاب السياسية في عالمنا العربي ألقها الذي كانت تتمتع به في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، وتدرجياً أخذ لونها يبهت وصوتها يتحشرج، ووهجها يخفت، وهو ما أظهرته بشكل صارخ حركة الاحتجاج الواسعة التي أُطلق عليها «الربيع العربي» قبل عقد من الزمان، والأمر يعود لأسباب موضوعية، وأخرى ذاتية.

الأولى تتعلق بانتهاء الصراع الأيديولوجي بشكله القديم، وتبدل ظروف الحرب الباردة التي توجّت بهدم جدار برلين في 9 نوفمبر/ تشرين الثاني 1989

الثانية تتعلق بفقدان الحماس الشعبي، وعزوف الشباب عن الانخراط في صفوفها، إلى درجة أصبح بعضها منتدى للمسنين والمتقاعدین الذين يعيشون في الماضي، وتحولها إلى أحزاب محافظة وتقليدية

ولعب العاملان الموضوعي والذاتي دورهما في الحال التي وصلت إليها الأحزاب القديمة، القومية والشيوعية، إضافة إلى الأحزاب الدينية، بل إن بعض الانتقادات التي كان يوجهها بعضها إلى الآخر وقع هو فيها، من المحسوبة والمنسوبة والفساد والتسلط، فهي لا تتورع من التزوير، أو تسكت عنه، أو تمالي أحياناً إذا كان يأتي إليها بمنفعة أو لبعض المحسوبين عليها. فالعلماني أصبح طائفيًا، والطائفي أخذ يتحدث بالدولة المدنية والقومي، والأممي لم يجد ضيراً من قبول التعامل مع قوى خارجية، بل إن العديد منهم انكفأ ليصبح محلياً، بل متدرراً في هويته الفرعية، فهذا يتحدث عن المظلومية التاريخية، وآخر يتناول حقوق «المكوّن»، وثالث يضع انتماءه الإثني فوق الانتماء الوطني، كما دخلت إليها العشائرية والوراثية

ولم تستطع هذه الأحزاب لأسباب القمع المعتقد الذي كانت تتعرض له وعمليات الإلغاء والاستئصال والتهميش وشحّ الحريات بالدرجة الأساسية، أن تتنفس هواء ديمقراطياً، لا سيّما مع استمرار نهج الاستبداد لعقود من الزمان، ولأسباب فكرية وعملية، لم تتمكن من تقديم بديل مقبول، بل استخدمت الأساليب نفسها في الكثير من الأحيان، في معادلة ملتبسة، ظلّت تطرح أسئلة عدة: هل المعارضة وجه آخر للسلطات؟ فإذا كانت رحيمة وسمحة، فستراها عقلانية وسلمية، والعكس صحيح. وتلك واحدة من مفارقات السياسة

ولأن الأحزاب عانت اختلال العلاقة بين الأعلى والأدنى، والأغلبية والأقلية، وغابت عنها حرية التعبير بزعم المركزية ووحدّة القرار، فقد احتجب النقد والنقد الذاتي، وعانت من مركزية بيروقراطية صارمة واتكالية وتعويلية فكرية مهيمنة، الواضحة في أحزاب السلطة والمعارضة، حيث تكررت الانقسامات والانشقاقات وحركات الاحتجاج لقمع الرأي الآخر

والأكثر من ذلك، فإن الحزبية تقدّمت على الهوية الوطنية في الكثير من الأحيان، بزعمها أن الحزب متقدم على الوطن، وفي الكثير من الأحيان، تمت التضحية بالعديد من أعضاء الحزب ذاته، ومن أخلص الوطنيين بسبب النهج الأحادي الإطلاقي بتبرير ادعائها امتلاك الحقيقة والأفضليات

وغالباً ما دخلت حزبيات في صراع تناحري كان الوطن فيها هو الضحية، خصوصاً في ظلّ شحّ حرية التعبير ونظام الطاعة والهيمنة والأبوية

لقد تربّت النخب الحزبية في أجواء السرية والحرمان والفاقة، وحين اقتربت من السلطة، أية سلطة، فرّغت الكثير من عقدها للتعويض عن ذلك، مستخدمة أساليب من أشدها قسوة وفظاظة إلى أكثرها مكرراً وخبثاً، الأمر الذي يحتاج إلى إجراء مراجعة نقدية للسياسة الحزبية والحزبية السياسية، والهدف أنسنة الحياة السياسية

ومن العبث أن نحاول مدّ الوقائع لتكون مطابقة لسرير بروكرست، حسب الميثولوجيا اليونانية، حيث يسعى الحزبي لجرّ صاحبه حتى يهلك إذا كان السرير طويلاً، أما إذا كان صاحبه أطول فيعمل على اقتطاع أرجله لتأتي تصوّراته ونزعاته الإرادية متطابقة مع الواقع. وفي كلتا الحالين، فالخسارة فادحة، ولا بدّ من الإقرار بذلك والتعامل مع الواقع كما هو، لتجنّب البلاد صراعات لا طائل منها، خصوصاً التناكر للحقيقة. وتلك إحدى المعضلات التي تواجه المثقف الحزبي والسياسة الحزبية

drhussainshaban21@gmail.com